ISSN: 1999-5601 (Print) 2663-5836 (online)

Lark Journal

Available online at: https://lark.uowasit.edu.iq

*Corresponding author
Zahraa Imad Mohsen Amanah
University of Wasit / College of Arts
Email: std.zmohsen20222023@uowasit.edu.iq
Asst. Prof. Dr. Amal Hassan Taher
University of Wasit / College of Arts
Email: aaldelphi@uowasit.edi.iq

A R T I C L E I N F O

Article history:
Received 14 Jan 2024
Accepted 20 Mar 2025
Available online 1 Apr 2025

The Structure of Discourse in Poems with Multiple Themes (Zuhair ibn Abi Salma's Poetry as a Model)

A B S T R A C T

This research examines the structure of poetic discourse in the multi-themed poems of the poet Zuhair ibn Abi Salma's anthology. It explores his social reality and its positive and negative effects through a coherent structure, where the verses are connected to the poet's emotional and psychological states, as well as the circumstances at the time of composing the poem and the intended occasion for it. The study presents a vast heritage through these poems, which reflect the progression of ideas according to the poet's perspective. The researcher adopted an analytical approach to identify the structures within each individual poem.

© 2025 LARK, College of Art, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/lark.4214

بنية الخطاب في القصيدة ذات الموضوعات المتعددة (شعر زهير بن أبي سلمى انموذجًا)

الباحثة زهراء عماد محسن امانه/جامعة واسط /كلية الآداب
أ.م.د أمل حسن طاهر/جامعة واسط /كلية الآداب

الملخص

يتناول البحث دراسة بنية الخطاب الشعري في القصائد ذات الموضوعات المتعددة في ديوان الشاعر زهير بن أبي سلمى ونعرض بوساطتها واقعه الاجتماعي وآثاره الإيجابية والسلبية عبر بنية مرصوصة ارتبطت فيها الأبيات الشعرية بالحالات الشعرية والنفسية ، وما يرافقها في وقت تأليف القصيدة والمناسبة المبتغاة منها، ليقدم لنا تراثًا ضخمًا بتلك القصائد التي عكست توالي الأفكار وفقًا لرؤية صاحبها. وقد اعتمدت الباحثة المنهج التحليلي وصولا الى تلك البنيات التي تضمنتها القصيدة الواحدة.

الكلمات المفتاحية: بنية الخطاب، زهير بن أبي سلمى، بنية القصيدة، الموضوع الشعري الواحد، الموضوعات الشعرية المتعددة

مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية

يضم ديوان زهير بن أبي سلمى مجموعة من البنيات الشعرية التي لها أهميتها ودورها في بناء قصائده.، فلم تكن غاية الشعر الجاهلي خصوصًا والشعر العربي عمومًا "أن يغير العالم أو يتخطاه، أو يخلق عالمًا آخر، بل غايته أن يتحدث مع الواقع ويصفه ويشهد له"(سعيد، 1979م، 24). وينبغي أن يشكل النصّ الشعري بما يحمله من دلالات بنية كلية تعبر عن شعور الشاعر بالحياة، في لوحات متداخلة يخترق بعضها بعضًا، ويمتزج بعضها بالآخر.

فالبنية الكلية "نسيج متماسك لوحدات متعالقة، تشع دلالتها من خلال تعالق السطح والعمق، والدلالات تشي برؤية العالم"(الطعان، 1994م، 451)؛ ولذلك كان لا بد لنا من الدخول إلى عالم القصيدة والكشف عن أعماق بنيتها الكلية بتفكيكها إلى بنى جزئية، يشكل كلٌّ منها عالمًا سحريًّا يتعلق بحياة "زهير".إنّ القصيدة المكتملة: "هي القصيدة ذات البنى الثلاث (نسيب ورحلة وفخر) ، وقد جعل بعض النقاد القصيدة المكتملة هي القصيدة الأصلية، والجزء هو بقايا لقصيدة كاملة أو قصيدة غير مكتملة قد تحتوي القصيدة على بنيات متعددة وتزيد على ثلاث، لكن التحليل يظهر في الغالب البنى الرئيسة للقصيدة والعلاقات بينها"(عبد العزيز، 2009م، 113 .(

إن القصيدة ذات الموضوعات المتعددة نموذج شعري متكامل له بنية خطاب خاصة, وتوزعت هذه القصائد على ثلاث مراحل شعرية مترابطة: الافتتاح، الرحلة، والغرض الرئيس. ويعد الافتتاح

المدخل الأول للنصّ الشعري، وهو الطريقة التي يستعملها الشاعر للوصول إلى موضوع القصيدة الرئيس، ويتناول الافتتاح موضوعات مثل الطلل، الظعن، النسيب، الغزل، الخمر، الشيب، الشباب، والشكوى، فضلًا عن الفروسية. أمّا الرحلة فتصف الناقة ورحلتها وتقوم بتشبيهها بحيوان صحراوي مثل الثور الوحشي، الحمار الوحشي، والظليم، في حين يمثل الغرض الرئيس الهدف أو الاستجابة الآنية لظروف معينة دفعت الشاعر إلى نظم القصيدة(رومية، 1982م، 17- 18.(

هذا التوزيع الذي ذكرناه لا يُعد ثابتًا, فقد يقرر الشاعر الاستغناء عن بعض عناصر التمهيد، أو حتى يتجاوز الرحلة بأكملها ليبدأ مباشرة في موضوعه الرئيس، كما يمكنه أن يقدم وصفًا مختصرًا للناقة من دون الحاجة لمقارنتها بحيوان آخر من الصحراء(الجادر، 1979م، 244.(

ونجد أن هذا النوع من القصائد يهيمن على القصائد الطويلة بشكل خاص. فقد اتبع الشاعر الأسلوب التقليدي المتوارث، إذ يبدأ بذكر الأطلال والنسيب، ثم ينتقل لوصف الرحلة، وصولًا إلى الهدف الرئيس، وهناك قصائد تتضمن مقدمة وغرضا رئيسا ، أو قصائد فقدت موضوعها ولم يبقَ منها سوى المقدمة والرحلة، بشرط أن تحتوي على عدد من الأبيات يتجاوز الخمسة عشر بيتا. وقد وجدت في ديوان زهير هذا النوع من القصائد التي تتضمن أغراضًا متعددة، و أشار إليها النقاد وأكدّوا أهميتها، ومن بينهم ابن قتيبة الذي قال: "إنَّ مقصد القصيد إنّما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا، وخاطب الربع واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببًا لذكر أهلها الظاعنين عنه، ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق؛ ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه؛ لأن التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب"(الدينوري، 2017م، 11 .(

مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية

هكذا هي أغلب قصائد زهير من هذا النوع الذي لا يكتفي بالموضوع الواحد، فقد تنوعت الأغراض وتعددت فقد كان ينتقل من غرض لآخر بشكل مفاجئ ويسري على أجزاء القصيدة جميعها.

و نجد ذلك في قصائد المديح عند زهير وهو يمدح حصن بن حذيفة الفزاري في ظل النزاع القائم مع قبيلة غطفان. فيقول:

صَحا القَلبُ عن سلمَى وأَقصَرَ باطلُهْ وعُرِّيَ أَفراسُ الصِّبا ورَواحِلُهْ

وأَقصَرتُ عمّا تَعلَمِينَ وسُدِّدَتْ عليَّ سِوىَ قَصدِ السَّبيلِ مَعادِلُهْ

وقالَ العَذَارىَ إنَّما أنتَ عَمُّنا وكانَ الشَّبابُ كالخَلِيطِ نُزايِلُهْ

فأصبَحتُ ما يَعرِفْنَ إلاّ خَليقَتي وإلاّ سَوادَ الرَّأسِ والشَّيبُ شامِلُهْ

لِمَن طَلَلٌ كالوَحيِ عافٍ مَنازلُهْ عَفا الرَّسُّ منهُ فالرَّسَيسَ فعاقِلُهْ
فرَقْدٌ فصاراتٌ فأكنافُ مَنعِجٍ فشَرقِيُّ سَلمَى حَوضُهُ فأَجاوِلُهْ
فوادِي البَدِيِّ فالطَّوِيُّ فثادِقٌ فوادِي القَنانِ جِزعُهُ فأَفا كِلُهْ
وغَيثٍ منَ الوَسمِيِّ حُوٍّ تِلاعُهُ أَجابَتْ رَوابِيهِ النِّجا وهَواطِلُهْ(الديوان، د.ت، 45- 47).

ففي بداية حديثه يخاطب الذات، فهو في بداية القصـــيدة لم يقف على طلل المكان بل على طلل الذات، إذ يبدو أن شـعوره المفاجئ بتغير الزمن قد فرض عليه هذه اللحظة التأملية، التي تعكس نوعًا من "الصـــحوة". إنها صـــحوة من الماضـــي بعد انتهاء مدة الشـــباب، مما يشـــير إلى انتقال من القوة والحماسة إلى الحكمة والخبرة. كما أنَّ استعمال الفعل "عُرّي" المبني للمجهول يعكس استسلام الذات لعوامل الزمن وتغيراته.

فيتجلى الصراع بين زمنين متضادين: الماضي الذي يرمز إليه الشباب بقوته ونشاطه وحيويته، والحاضر الذي تمثله الشيخوخة وما تعانيه الذات نتيجة هذا الشعور. لذا تسعى الذات إلى حماية نفسها من علاقتها بالآخر، وإبراز الخبرة والحنكة في رحلة صيد، التي أبدع الشاعر في تصويرها لتجسد الصراع بين الفرس والحمار الوحشي، كما يظهر في اللوحة الثانية من بنية القصيدة. إذ يقول:

هَبَطتُ بِمَمسُودِ النَّواشِرِ سابحٍ مُمَرٍّ أَسيلِ الخَدِّ نَهدٍ مَراكِلُهْ
تَمِيمٍ فَلَوناهُ فأُكمِلَ صُنعُهُ فتَمَّ وعَزَّتْهُ يَداهُ وكاهِلُهْ
أَمِينٍ شَظاهُ لم يُخَرَّقْ صِفاقُهُ بمِنقَبةٍ ولم تُقَطَّعْ أَباجِلُهْ
إذا ما غَدَونا نَبتَغي الصَّيدَ مَرَّةً مَتَى نَرَهُ فإنَّنا لا نُخاتِلُهْ(الديوان، د.ت، 48- 49).

وصـف الشـاعر صـورة النبات الذي نما بفعل المطر الوسـمي"وقد اتخذ من المطر عنصـرا فعالا تمكن من خلاله أن يعيد الحياة ويحقق الولادة الجديدة بغير الانسان"(طاهر،4،2025) ،إذ غطى النبات جميع المرتفعات والمنخفضـــات، مما أتاح للناس والشـــاعر الاســـتمتاع بجمال الطبيعة. كما تتضمن الأبيات صورة لجواد أحضره الشاعر إلى ذلك المكان، وقد وصفه بالقوة والعنفوان والحيوية. و استهلّ زهير اللوحة بصورة الخصب وانبعاث الحياة وتجددها، وإيحاء بحياة يملؤها الأمن والعطاء بعد ماضٍ من الصراع المرير الذي دمر المكان وأحاله إلى الخراب.

ولننتقل من تصـــوير المطر والجواد إلى جو آخر في فضـــاء هذه القصـــيدة. ولإكمال مشـــهد الفرس السريع يقدم زهير صورة الحمار في هذه الرحلة. إذ يقول:

فبَينا نُبَغِّي الصَّيدَ جاءَ غُلامُنا يَدِبُّ ويُخفِي شَخصَهُ ويُضائِلُهْ

فقالَ شِياهٌ راتعاتٌ بقَفرةٍ بمُستأسِدِ القُرْيانِ حُوٍّ مَسائلُهْ
ثَلاثٌ كأقواسِ السَّراءِ ومِسحَلٌ قدِ اخضَرَّ من لَسِّ الغَمِيرِ جَحافِلُهْ
وقد خَرَّمَ الطُّرّادُ عنهُ حِجاشَهُ فلم يَبقَ إلاّ نَفسُهُ وحَلائلُهْ(الديوان، د.ت، 50.(

انتقل ليهيئ لعملية الصيد وكأنها معركة تتطلب خبرة، لذا لا بد من إجراء استطلاع لرسم حركة الغلام وسيره. وقد أظهر في ذلك حالته النفسية والجسدية وهو يراقب الحمر الوحشية، حريصًا على عدم إخافتها. كما كان يُخبر الصيادين عن مواقعها وهي ترعى بين النباتات الخضراء، والمياه تتدفق بين الحصى. إذ تعكس هذه الصورة حالة الخصوبة التي تعم البلاد بعد سنوات طويلة من الجفاف التي مرّت بالقوم. وبذلك بدأ الشاعر برسم صورتين متضادتين: الأولى تتعلق بالفرس وفريق الصيد، والثانية تتعلق بالحمار الوحشي. وقد أبدع في رسمهما بدقة ومهارة. ثم انتقل إلى وصف تطويع المهر، إذ يقول :

فقالَ أَمِيرِي ما تَرَى رأيَ ما نَرَى أنَختِلُهُ عن نَفسِهِ أم نُصاوِلُهْ
فبِتنا عُراةً عِندَ رأسِ جَوادِنا يُزاوِلُنا عَن نَفْسِهِ ونُزاوِلُهْ
ونَضرِبُهُ حتَّى اطمأنَّ قَذالُهُ ولم يَطمئنَّ قَلبُهُ وخَصائلُهْ
ومُلجِمُنا ما إنْ يَنالُ قَذالَهُ ولا قَدَماهُ الأرضَ ألا أنامِلُهْ(الديوان، د.ت، 50.(

وهنا يصف أولئك الذين يسعون لترويض الحصان البكر ليصبح سهل القيادة ضمن بنية اللوحة الشعرية، على الرغم من ضخامته وطوله. فقد تناول زهير جانبين من هذا الحيوان: الأول مادي إذ يظهر الحصان ككائن جامح يصعب السيطرة عليه (يزاولنا ونزاوله)، مما يستدعي وجود طريقة لترويضه وتخفيف حدة طبعه (فنضربه حتى يطمئن قذاله). أمّا الجانب الثاني فهو نفسي اذ يواجهون تحديات في ترويضه (لم يطمئن قلبه وخصاله). يتضح من ذلك أن زهيرًا يمتلك موهبة فريدة في تجسيد المعاناة النفسية، فضلًا عن مهارته في تصوير التجارب الحسية، وكأنّه خبير في استكشاف أعماق النفس. وذلك يعود إلى خبرته الواسعة في مجريات الحياة، فالغلام يدرك تمامًا ما يُتوقع منه وهو يشعر بالاطمئنان حيال ذلك، كما أن الحصان أيضًا يعرف ما يُراد منه. ومع ذلك كان إصرار المطوع على ترويض المهر أقوى من مقاومته، مما أدى إلى انصياعه له بعد جهد كبير:

فلأْيًا بِلأْيٍ ما حَمَلْنا وَلِيدَنا على ظَهرِ مَحبُوكٍ ظِماءٍ مَفاصِلُهْ
وقُلتُ لهُ سَدِّدْ وأَبصِرْ طَرِيقَهُ وما هُوَ فيهِ عن وَصاتيَ شاغِلُهْ
وقُلتُ تَعلَّمْ أَنَّ لِلصَّيدِ غِرَّةً وإلاّ تُضيِّعْها فإنَّكَ قاتِلُهْ(الديوان، د.ت، 52-53.(

تتضمن الأبيات صورة ثانية تتمثل في الشياه الراتعات وحمارهن الذي يقودهن إلى المراعي اذ الكلأ والماء. وقد استعمل الشاعر اللون للدلالة على الخصب الذي يعم المكان، لكن هذا الربيع لم ينفع الحمار وأتنه، لأنَّ جمعهما قد تفرق. ولعل في هذه الصورة إشارة إلى أهمية القبيلة، فهي التي تحمي الفرد وتقيه من مصاعب الحياة. ومن هنا يظهر اعتزاز حصن بن حذيفة بقبيلته التي كانت له درعًا وحماية عندما احتاج إلى ذلك .

وتستمر مغامرة الصيد ضمن بنية كلية تبدأ المطاردة بين الفرس من جهة والحمار وأتنه من جهة أخرى. وكيف يتمكن الشاعر من تجسيد هذا المشهد بشكل مبدع، فيقول:

فتَتَبَّعَ آثار الشِّياهِ وَلِيدُنا كشُؤبُوبِ غَيثٍ يَحفِشُ الأُكْمَ وابِلُهْ

نَظَرتُ إِليهِ نَظرةً فرأيتُهُ على كلِّ حالٍ مَرَّةً هُوَ حامِلُهْ

يُثِرنَ الحصَى في وجههِ وهْوَ لاحقٌ سِراعٌ تَوالِيهِ صِيابٌ أَوائلُهْ

فَردَّ علينا العَيرَ من دُونِ إِلفِهِ على رُغمِهِ يَدمَى نَساهُ وفائلُهْ

فرُحْنا بِهِ يَنضُو الجِيادَ عَشِيَّةً مُخضّبةً أَرساغُهُ وعَوامِلُهْ

بذِي مَعيةٍ لا مُوضعُ الرُّمحِ مُسْلِمٌ لِبُطءٍ ولا ما خَلفَ ذلكَ خاذِلُهْ(الشمنتري، د.ت، 53- 55).

مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية

تبدأ مرحلة المطاردة، إذ تتجلى صورة حركية تثير انتباه المتلقي بدقة تصويرها وبراعتها، (كشؤبوب غيث يتساقط على الأكمه). هنا يظهر الحدث من خلال متابعة حركة الغلام والفرس، فنرى تقلبات الغلام من حالة إلى أخرى، وكل مرة يتجلى فيها بشكل مختلف. كما نلاحظ صبر الفرس وإصراره على اللحاق بالطريدة على الرغم من التحديات التي تواجهه. وقد فرّت الشياه مذعورة بينما الحصى يتطاير خلفها، حتى تمكن من الانفراد بالحمار، عائدًا به مدمى وعلى حصانه آثار من دمه. إنَّ هذا الصبر والإصرار، المقرون بالقوة والشدة، مع الخبرة والحكمة التي تميز بها الغلام، قد أسفر عن تحقيق النتيجة المرجوة .

وهكذا تمكنت هذه النظائر الثلاث (الفرس، الغلام، الذات) التي تشكلت منها البنية الكلية من تحقيق النصر بفضل تلاحمها وتوحدها، مما أسفر عن هزيمة الحمار. وقد تكون هذه هي المرة الوحيدة التي يتعرض فيها الحمار للهزيمة في صراعه. لقد ابتعد الشاعر بهذه النهاية عن النمط التقليدي في صراع الحمار مع كلاب الصيد، مما يعكس مدى تماهيه مع موضوعه، وهو غرض المديح و قصة عمرو بن هند وحصن بن حذيفة.

أمّا لوحة المديح فتتمثل فيما يأتي:

وأَبيضَ فَيّاضٍ يَداهُ غَمامةٌ ... على مُعتَفِيهِ ما تُغِبُّ فَواضِلُهْ
بَكَرتُ عليهِ غُدْوةً فرأَيتُهُ ... قُعُودًا لدَيهِ بالصَّرِيمِ عَواذِلُهْ
يُفَدِّينَهُ طَورًا وطَورًا يَلُمْنَهُ ... وأَعيا فما يَدْرِينَ أَينَ مَخاتِلُهْ
فأقصَرْنَ مِنهُ عن كَرِيمٍ مُرَزَّإٍ ... عَزُومٍ على الأَمرِ الّذِي هُو فاعِلُهْ
أَخي ثِقةٍ لا تُتلِفُ الخَمرُ مالَهُ ... ولكنّهُ قد يُهلِكُ المالَ نائلُهْ
تَراهُ إذا ما جِئتَهُ مُتَهلِّلًا ... كأنَّكَ تُعطِيهِ الّذِي أَنتَ سائلُهْ
وذِي نَسَبٍ ناءٍ بَعيدٍ وَصَلتَهُ ... بمالٍ وما يَدْرِي بأَنَّكَ واصِلُهْ
تَرَى الجُندَ والأعرابَ يَغشَونَ بابَهُ ... كما وَرَدَتْ ماءَ الكُلابِ هَوامِلُهْ
إذا ما أَتَوا أَبوابَهُ قالَ مَرْحَبًا ... لِجُوا البابَ حتَّى يأتيَ الجُوعَ قاتِلُهْ
فلو لم يَكنْ في كَفِّهِ غيرُ نَفْسِهِ ... لجادَ بها فليتَّقِ اللهَ سائلُهْ
وذِي نِعمةٍ تَمَّمْتَها وشَكَرتَها ... وخَصمٍ يكادُ يَغلِبُ الحَقَّ باطِلُهْ
دَفعتَ بَمعرُوفٍ مِن القَولِ صائبٍ ... إذا ما أَضَلَّ النّاطِقِينَ مَفاصِلُهْ
وذِي خَطَلٍ في القَولِ يَحسِبُ أَنَّهُ ... مُصِيبٌ فما يُلمِمْ بهِ فهْوَ قائلُهْ
عَبأتَ لهُ حِلمًا وأَكرَمتَ غَيرَهُ ... وأعرَضتَ عنهُ وهْوَ بادٍ مَقاتِلُهْ(الديوان، د.ت، 55-60).

مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية

بدأ الشاعر قصيدته بغرض المدح من خلال كلمة (أبيض، فياض)، إذ يرمز البياض إلى الصفاء والنقاء، بينما تعد صفة (فياض) بصيغة المبالغة عن عطاءٍ وفير. تعكس هذه الصور الكرم المعروف، وتدعمها العبارة (يداه غمامة) مما يعزز هذا المعنى ،فيتميز الممدوح بكرم لا ينقطع (ما تغيب نوافله)، (أبيض فياض)، (يداه غمامة)، تشير هذه العبارات تشير بوضوح إلى صفة الكرم،وتشكل بنية أساس اعتمدها النص منذ البداية.

وينتقل الشاعر في خطابه بعد ذلك لوصف صفة أخرى تميّز الممدوح، إذ يبرز عدم اهتمامه بانتقادات العواذل الذين يلومنه على إسرافه في المال, ويظهر موقفه الحازم في تصديه لتلك الانتقادات، إذ يتلقّى منهن الدعم في بعض الأحيان واللوم في أحيان أخرى (يفدينه طورًا, وطورًا يلمنه)، لكنه في النهاية يتجاهلهن تمامًا، إذ تحمل هذه المعاني دلالات عميقة ؛ إذ تعكس قوته في مواجهة تهديدات عمرو بن هند إذ كان ثابتًا في مواقفه وردوده تجاهه.

ولا يقتصر الشاعر في بنية خطابه على السعي لإقامة علاقة تواصل مع الفرد فقط، بل تفرض عليه رؤاه وفلسفته أن يتجاوز ذلك إلى التواصل مع القبيلة، فالفرد لا يستطيع تحقيق ذاته إلا من

انتمائه إلى القبيلة. لذا يسعى الشاعر إلى تسليط الضوء على ممدوحه وربطه بأصوله، حتى وإن كانت المسافات بعيدة (وذي نسب ناء بعيد وصلته)، هذا الربط يمنح الممدوح القوة والشجاعة لمواجهة التحديات والخصوم، فجاءت الأبيات في خطابه الشعري لتصف شجاعة (حصن) وإقدامه:

ومن مِثْلُ حِصنٍ في الحُروبِ ومثلُهُ لإنكارِ ضَيمٍ أو لأَمرٍ يُحاوِلُهْ

أَبَى الضَّيمَ والنُّعمانُ يَحْرِقُ نابُهُ عليهِ فأَفضَى والسُّيُوفُ مَعاقِلُهْ

عَزِيزٌ إذا حَلَ الحَلِيفانِ حَولَهُ بِذي لَجَبٍ لَجَّاتُهُ وصَواهِلُهْ

يُهَدُّ لهُ ما دُونَ رَملةِ عالجٍ ومَن أَهلُهُ بالغَورِ زالتْ زَلازِلُهْ(الديوان، د.ت، 60- 61).

وقد تظهر الأبيات من توالي البنية شجاعة حصن وإقدامه، ورفضه للذل (إنكار الضيم)، (أبى الضيم). وقد جاء تكرار كلمة "الضيم" ؛ لأنَّ رسالة عمرو بن هند كانت تحمل في طياتها معاني الإذلال والمهانة.

وتعبّر هذه الأبيات عن الحكمة من موقف القبيلة التي آزرت حصنًا ووقفت إلى جانبه، مما زاده ذلك قوة وشجاعة (عزيز اذا حل الحليفان حوله)، وهذا الخطاب الشعري ينسجم مع رؤى الشاعر وطموحاته في رؤية القبائل متحدة، تسودها القيم الإنسانية النبيلة، بعد أن نبذت الحروب وبدأت تسير نحو السلام، لخلق حياة جديدة مليئة بالعمران بدلًا من الدمار.

مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية

ويُعد الانطلاق من طيف الخيال والتواصل مع الحبيبة البعيدة سمة بارزة في شعرنا القديم. فمقدمة الطيف تُعد من العناصر التي يهيئها الشاعر في بعض قصائده، وتتوالد هذه البنية من خلالها البنيات الأخرى التي تُولد عناصر أخرى تُسهم في تشكيل الخطاب الشعري. كما تعكس هذه العناصر رؤية الشاعر وإحساسه بالفشل في تحقيق ما يسعى إليه، مما يدفعه اللجوء إلى طيف الخيال بوصفه وسيلة للتعبير عن نفسه.

ومن هنا تتجلى المقدمة الرمزية لطيف الخيال المرتبطة بالهدف الذي يكشف عن معاناة الذات، ببيان الرضا بالطيف وزيارته على الرغم مما فيها من ألم وعبَر عن رضاه بالطيف الذي وجد فيه متنفسًا له، ولتأكيد هذه الفكرة ينبغي علينا التوقف عند نصّ شعري يبرز تلك العلاقة الفنية التي تميز بها الشعر الجاهلي، نجد ذلك في خطاب زهير:

شَطَّتْ أُمُيمةُ بَعدَما صَقِبَتْ ونأتْ وما فَنِيَ الجِنابُ فَيذهَبُ

نالَتْ بِعاقِبةٍ وكانَ نَوالَها طَيفٌ يَشُقُّ على المُباعَدِ مُنصِبُ

في كُلِّ مَثْوَى لَيلةٍ سارٍ لها هادٍ يَهِيجُ بِحُزنِهِ مُتأوّبُ

أَنَّى قَطَعتِ وأَنتِ غَيرُ رَحِيلةٍ ◌ْرْضَ الفَلاةِ وأَينَ مِنكِ المَطلَبُ(الديوان، د.ت، 205.(

يعبر الشاعر عن شغفه العميق من محادثته مع الطيف الذي لا يستطيع التواصل معه في الواقع. فيتجلى هذا الطيف في صورة خيال المحبوبة التي تزوره في الليل، مما يؤدي إلى الأرق ويعكر صفو نومه. وتظهر لفظة (أميمة) التي ذكرها زهير في حديثه كرمز للأم الحنونة والعطوف(عبد الرحمن، 1976م، 153)، وهذه اللفظة لها دلالات مؤثرة في نفس الشـــاعر إذ ترمز إلى الحبيبة المفارقة. منذ البداية كان زهير يحمل عبء الشـــعور بالبعد، إذ تعكس أفعاله (شـــطت، نأت، فني، يذهب) حالة من الاستمرارية والتقدم. يشعر الشاعر بأنَّه محاصر سلبًا بين الفناء من جهة والابتعاد من جهة أخرى.

إنَّ الشعور بالحزن في بنية النسيب لا يربط بين الشاعر والطيف بشكل كامل، إذ يبقى الطيف أو الخيال مرتبطًا بأميمة، بينما يعاني الشاعر الوحدة بعيدًا عنها. فالخيال يمثل وسيلة للتواصل بينه وبين أميمة .

وســعى الشــاعر في هذا الجزء إلى وصــف (الناقة)، إذ حاول أن يرســم لناقته لوحة فنية متميزة تعكس جودتها. وقد اهتم بتشـكيل الإطار العام لهذه اللوحة، مكرسًـا جهوده لتجسـيد معاني الصـلابة والقوة والأمومة فيها. إذ يقول :

هل تُبْلِغَنِّيها على شَحْطِ النَّوَى عَنْسٌ تَخُبُّ بيَ الهَجِيرَ وتَنعَبُ

أُجُدٌ سَرَى فيها وظاهَرَ نَيَّها مَرعىً لها أَنِقٌ بفَيدٍ مُعشِبُ

حَرْفٌ عُذافِرةٌ تَجِدُّ براكبٍ وكأنَّ حاركَها كَثِيبٌ أَحدَبُ

منها إذا احتَضرَ الخُطُوبُ مُعوَّلٌ وقِرىً لحاضرةِ الهُمُومِ ومَهرَبُ

وكأنَّها إذ قُرِّبَتْ لقُتُودِها فَدَنٌ تَطُوفُ بهِ البُناةُ مُبوَّبُ

تَهدِي قَلائصَ دُرِّبَتْ عِيديّةً خُوصًا أَضَرَّ بها الوَجيفُ المُهْذِبُ

حتَّى انطوَى بَعدَ الدُّؤوبِ ثَميلُها وأُذِلَّ منها بالفَلاةِ المَصْعَبُ

وكأنَّ أَعيُنَهُنَّ من طُولِ السَّرَى قُلُبٌ نَواكِزُ ماؤهُنَّ مُنضِّـــبُ(الديوان، د.ت، 206- 207.(

وتُعد صـــورة الناقة رمزًا للأمومة، إذ تعكس جانبًا من شـــخصـــية الشـــاعر الذي يميل إلى فكرة الأمومة. فهي تجسد الجذور الحقيقية لمفاهيم الحب والرضا والسلام(الصائغ، 1982م، 210). وتمثل الناقة الأم صورة المرأة القوية والمكافحة التي تسعى بجد لاستمرار الحياة.

مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية

ويمكننا التوقف عند تجربة الشاعر مع ناقته لاستكشاف أبعادها الرمزية وما تحمله هذه الأبعاد من رؤى وأفكار على المستوى الموضوعي، فضلًا عن المشاعر والأحاسيس والانفعالات على المستوى النفسي، إذ يشبه زهير ناقته بحمار وحشي. فيأتي بالحمار وحده، من دون أن يرافق أتنه، فيرد الماء بمفرده. ولعل هذه البطولة الفردية التي أضفاها زهير لحماره في هذه القصة، والتي كانت مليئة بالحياة والفرح والسعادة، تعكس ما جاء في افتتاحية القصيدة والمشاعر التي يحملها الشاعر، فهو يتحدث عن نفسه، كما يتذكر أحبابه، حتى أن حبيبته تزوره في طيفه كل ليلة، فبدا وكأنه في استقرار عاطفي، وبالرغم من فراق الزمن بينهما فأن قلوبهما ما زالت متماسكة، وهذا حال الزمان، إذ وقف بالمرصاد للحمار حين تهيأ له صياد على شريعة الماء ليصطاده، ليكدر عليه صفو حياته.

ويقرر الشاعر الرحيل ليحقق حلم لقاء حبيبته، فيبتعد عن الأحزان والمخاوف والمصائب، ليعيش حياة مريحة ومزدهرة. وهكذا كانت قصة الحمار بعيدة بعض الشيء عن الهموم والخوف والضيق، إذ يجد الحمار نفسه في مرعى خصب يتسع له وحده، من دون أن يشاركه أحد, ويمكث هناك مدة ليست بالقصيرة، ثم عندما تصبح الأرض قاحلة ويجف الماء، يتذكر الينابيع الكثيرة التي مر بها في أسفاره, فقال:

مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية

وكأنَّها صَحِلُ الشَّحِيجِ مُطرَّدٌ ... أَخلَى لهُ حُقْبُ السَّوارِ ومِذْنَبُ

أَكَلَ الرَّبِيعَ بِها يُفَزِّعُ سَمْعَهُ ... بِمَكانِهِ هَزِجُ العَشِيَّةِ أَصهَبُ

وحَدًا كمِقلاءِ الوَلِيدِ مُكدَّمٌ ... جأبٌ أَطاعَ لهُ الجَمِيمُ مُحَنَّبُ

صُلبُ النُّسورِ على الصُّخُورِ مُراجِمٌ ... جأبٌ حَزابِيةٌ أَقبُّ مُعقربُ

حتَّى إذا لَوحُ الكَواكبِ شَفَّهُ ... مِنهُ الحَرائرُ والسَّفا المُتنَصِّبُ

إرتاعَ يَذكُرُ مَشرَبًا بثِمادِهِ ... مِن دُونِهِ خُشُعٌ دَنَونَ وأَنقُبُ

عَزَم الوُرُودَ فآبَ عَذْبًا بارِدًا ... مِن فَوقِهِ سُدٌّ يَسِيلُ وأَلْهُبُ

جُفَرٌ تَفِيضُ و لا تَغِيضُ طَوامِيًا ... يَزخَرنَ فَوقَ جِمامِهِنَّ الطُّحلُبُ(الشمنتري، د.ت، 207- 210.)

فاعتامَهُ عِندَ الظَّلامِ فسامَهُ ... ثُمَّ انتَهَى حَذَرَ المَنيَّةِ يَرقُبُ

وعلى الشَّرِيعةِ رابئٌ مُتَحَلِّسٌ ... رامٍ بعَينَيهِ الحَظِيرةَ شَيزَبُ

مَعَهُ مُتابِعةٌ إذا هَو شَدَّها ... بالشِّرْعِ يَستَشزِي لَهُ وتَحَدَّبُ

مَلساءُ مُحْدَلَةٌ كأنَّ عَتادَها ... نَوّاحةٌ نَعَتِ الكِرامَ مُشَيِّبُ

قَنواءُ حَصّاءُ المُقَوَّسِ نَبْعةٌ ... مِثلُ السَّبِيكةِ إذ تُمَلُّ وتُشْسَبُ

عُرْشٌ كحاشِيةِ الإزارِ شَرِيجةٌ صَفراءُ لا سِدْرٌ و لا هِيَ تألَبُ
ومُثَقَّفٌ ممّا بَرَى مُتمالِكٌ بالسَّيرِ ذو أُطُرٍ عليهِ ومَنكِبُ
فرَمَى فأخطأهُ وجالَ كأَنَّهُ أَلِمٌ على بَرْزِ الأمـاعِزِ يَلحَـبُ(الـديوان، د.ت،).210

يفتتح زهير النصّ لتشـكيل بنية جديدة بمشـهد الورود الذي يبدو فيه الصـياد كامنًا عند مورد الماء، وقد رمى هذا الصـياد بسـهامه نحو الحمار ليتمكن منه، ولكننا نلحظ أن أبرز صـفات ذلك الحمار هي كلمة (مكدم) ، وهذا يعني أنه تعرض لمحاولات الصـيد مرات عديدة، وقد نجا منها، وهذا ما حصـل معه هذه المرة، فقد اخطأه الصياد ولم يتمكن منه، وفر الحمار هاربًا مسرعًا.

هذا يدلنا على أنَّ الصـياد في تشـكيل بنية الخطاب يرمز الى الموت والقدر الذي يطارد الإنسـان، وعندما ينجو منه يشعر بالسعادة والفرح .

بمجرد أن تنتهي هذه البنية من الصـراع تبدأ بنية جديدة تتكرر فيها المواجهة ذاتها، إذ يظهر تجلٍّ آخر للناقة وهو (الثور). وقد يتمتع الثور ببعض المرح والسـعادة أثناء رعيه مع قطيع من الابقار، إلا أن تلك السعادة لا تدوم طويلًا، إذ سرعان ما يفاجأ بصياد مع كلابه التي كانت تتربص له دومًا، مما يجعله يشعر أنَّ الخطر ليس عليه فقط، بل على القطيع كله، وقد عبّر زهير عن تلك الحالة في القصة الثانية للثور الوحشي، إذ يقول:

أَفذاكَ أَم ذُو جُدَّتَينِ مُولَّعٌ لهقٌ تُراعِيه بحَومَلَ رَبرَبُ
بينا يَضاحِكُ رَملةً وجِواءَها يَومًا أُتيحَ لهُ أُقَيدرُ جأنَبُ
قَصْدًا إليهِ فجالَ ثُمَّتَ رَدَّهُ عِزٌ ومُشتَدُّ النِّصالِ مُجرَّبُ
فتركْنهُ خَضِلَ الجَبِينِ كأَنَّهُ قَرْمٌ بهِ كَدْمُ البِكارةِ مُصْعَبُ
فابتَزَّهُنَّ حُتُوفَهُنَّ ففائظٌ عَطِـبٌ وكـابٍ للجَبينِ مثترَّبُ(الـديوان، د.ت،).211

في هذه البنية الأخيرة من القصيدة، تتجلى أحد معاني الانتماء والإحساس بالاتصال من انتصار الثور على الكلاب، إذ تركت آثار دمائها في جبينه ويصـبح الثور رمزًا للقوة القادرة على إحداث تغيير حقيقي في مجتمعه، وأنَّ الانتماء إلى الجماعة يعزز من الشـعور بالذات ويمكّنها من مواجهة التحديات. وجاءت قصـة الثور عند زهير بعد قصـة الحمار في القصـيدة نفسـها، للدلالة على ترابط الحدث بين اللوحتين وتنوع العواطف والدوافع التي تحدث في نفسـية الشـاعر، فقد يضـم قصـتين أو حدثين في بنية القصيدة الواحدة.

مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية

وتُعد مقدمة الشكوى من المقدمات الشائعة في القصائد التي تتناول موضوعًا واحدًا، إذ ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالزمن. وقد تجلى هذا الأسلوب في خطاب زهير قبل أن ينتقل إلى موضوعه الرئيس، الذي تمثل في مدح هرم والحارث، إذ قال:

صَحا القَلبُ عن سَلمَى وكادَ لا يَسلُو وأَقفَرَ مِن سَلمَى التَّعانِيقُ فالثِّقْلُ

وقد كنتُ من سَلمَى سِنِينَ ثَمانِيًا على صِيرِ أمرٍ ما يَمُرُّ وما يَحلُو

وكنتُ إذا ما جئتُ يَومًا لحاج مَضَتْ وأَجَمَّتْ حاجةُ الغَدِ ما تَخلُو(الديوان، د.ت، 31.(

تُظهر بداية النصّ رغبة الشاعر في إقامة حوار مع الآخر، الذي يتمثل في المرأة، إذ تعكس هذه العلاقة صراعًا بين زمنين: الماضي والحاضر. فالفعل (صحا) الذي يبدأ به القصيدة يحمل دلالة عميقة تشير إلى التحول الذي يسعى إليه الشاعر، والافتتاحية (صحا القلب وقد كاد لا يسلو) تعبر عن صراع داخلي أو تردد بين الصحوة والنسيان، إذ إن التخلص من الماضي ليس بالأمر السهل، يتجلى ذلك بوضوح في تجربة زهير، إذ يعبر عن معاناته من خلال (سنينًا ثمانيا)، مما يعكس شعوره بالقلق والتوتر الناتج عن التناقض بين "ما يمر ويحلو". وتكشف هذه الصورة عن تذبذب الشاعر بين الثبات والتحول، إذ تتداخل الحلاوة والمرارة بعد نفيهما بـــ(ما) النافية. وهذا يعكس عمق إحساس الشاعر بالاغتراب، مما يدفعه للبحث عن هذا التحول ليتمكن من تذوق الحياة والإحساس بطعمها، فقد استعار الحلاوة والمرارة لما لهما من تأثير مباشر في الوجدان والمشاعر.

مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية

وإذا كان الماضي يمثل الثبات أو الركود، فإن المستقبل هو ما يسعى الفرد لتحقيقه، إذ يرى فيه إمكانية تحقيق رؤاه وأهدافه، وهذه المعاناة منحت الشخص تجربة فريدة، استطاع تحويلها إلى تجربة إنسانية غنية عندما يقول:

وكلُّ مُحبٍّ أَحدَثَ النَّأيُ عندَهُ سَلْوَ فُؤادٍ غيرَ حُبِّكِ ما يَسلُو(الديوان، د.ت، 32.(

وقد يظهر الشاعر في هذا البيت متناقضًا، لكنه يشعر بأنَّ ذاته متميزة عن سائر الذوات، فقد عانت من الاغتراب وشهدت ويلات الحرب وتفكك القبائل، كل هذه التجارب زادت من معاناته، لذا نراه يلجأ إلى التجريد في قوله (غير لبك ما يسلو)، مما يعكس شعور اغترابه، وفي البيت التالي يعود لاستخدام الضمير (أنا) في قوله:

تأوَّبَنِي ذِكرُ الأحبَّةِ بَعدَما هَجَعتُ ودُوني قُلَّةُ الحَزْنِ فالرَّمْلُ(الديوان، د.ت، 32.(

إنَّ عملية التحول ليست بالأمر السهل، فقد واجهت العديد من التحديات والعقبات (قلة الحزن في الرمل)؛ وهذا يعكس ترددها وقلقها بين الماضي الذي تسعى للتخلص منه، والمستقبل الذي تأمل أن تحقق فيه أهدافها، وقد استدعى ذلك منها لحظة تأمل (هجعت) قبل أن تبدأ رحلتها نحو حياة جديدة،

لتفكر فيما إذا كانت هذه العقبات ستؤثر في عزيمة الشاعر ورغبته في التقدم نحو مستقبل أفضل؟ إن الأبيات الآتية ستبرز مدى إصراره على التغيير ورغبته القوية في التحرر من قيود الماضي.

فأقسمتُ جَهدًا بالمَنازِلِ من مِنًى وما سُحِقَتْ فيهِ المَقادِمُ والقَمْلُ

لأرتَحِلَنْ بالفَجرِ ثُمَّ لأَدأَبَنْ إلى اللَّيلِ إلاَّ أَنْ يُعرِّجَنِي طِفلُ(الديوان، د.ت، 33.(

يعبّر زهير عن صحوة القلب التي أصبحت جزءًا من الماضي، ويعزز هذا الموقف بواسطة القسم وتوظيفه لأدوات التوكيد مثل (لأرتحلن) و(لأدابن)، كما تظهر علامات التغيير في الصورة التي وصفها بـ(وما سحقت فيه المقادم والقمل)، مما يوحي بحياة جديدة مليئة بالأمل والسلام، ويبدو أنَّه قد تحرر من ماضيه بحلق رأسه وسحق الشعر ، مما يعكس تخلصه من آثار الماضي بكل ما فيه من مرارة ومعاناة، لينطلق نحو حياة جديدة تجسدها فكرة الرحيل المبكر، ويشير إلى أنَّ هذا الرحيل لن يتوقف حتى الوصول إلى الهدف حتى لو جاء الليل، إذ يقول (إلا أن يعرجني طفل)، وأخيرًا تتناغم كلمة (طفل) في البيت الأخير مع فكرة الولادة الجديدة التي ينتظرها الشاعر.

أمّا في اللوحة الآتية التي تبدأ بقوله :

إلى مَعشرٍ لم يُورثِ اللُّؤمَ جَدُّهم أَصاغِرَهُم وكلُّ فَحلٍ لهُ نَجلُ

تَربَّصْ فإنْ تُقْوِ المَرَوْراةُ مِنهُمُ ودارتُها لا تُقْوِ مِنهم إذًا نَخلُ

بِلادٌ بها نادمتُهُم وأَلِفتُهُم فإنْ تُقوِيا مِنهمُ فإنَّهُما بَسلُ

إذا فَزِعُوا طارُوا إلى مُستَغيثِهِم طِوالَ الرِّماحِ لا ضِعافٌ ولا عُزْلُ

بِخَيلٍ عليها جنَّةٌ عَبقَرِيَّةٌ جَدِيرُونَ يَومًا أَنْ يَنالُوا فيَستعلُوا

وإنْ يُقتَلُوا فيُشتَفَى بدمِائهم وكانُوا قَدِيمًا مِن مَناياهُمُ القَتلُ

عليها أُسُودٌ ضارياتٌ لَبُوسُهُم سَوابغُ بِيضٌ لا تُخَرِّقُها النَّبلُ

إذا لَقِحَتْ حَربٌ عَوانٌ مُضِرَّةٌ ضَرُوسٌ تُهِرُّ النّاسَ أَنيابُها عُصلُ

قُضاعِيَّةٌ أو أُختُها مُضَرِيَّةٌ يُحَرَّقُ في حافاتِها الحَطَبَ الجَزلُ

تَجِدْهُم على ما خَيَّلَتْ هم إزاءَها وإنْ أَفسَدَ المالَ الجَماعاتُ والأَزْلُ

يَحُشُّونَها بالمَشرَفيَّةِ والقَنا وفِتيانِ صِدقٍ لا ضِعافٌ ولا نُكلُ

تَهامُونُ نَجديُّونَ كَيدًا ونُجعةً لكلِّ أُناسٍ من وقائعِهِم سَجلُ

هُمُ ضَرَبُوا عن فَرجِها بِكَتِيبةٍ كبَيضاءِ حَرْسٍ في طَوائفِها الرَّجْلُ

متَى يَشتَجِرْ قَومٌ تَقُلْ سَرَواتُهم هُمُ بَينَنا فَهُمُ رِضًا وهُمُ عَدْلُ

هُمُ جَدَّدُوا أَحكَامِ كلِّ مُضِلَّةٍ منَ العُقمِ لا يُلفَى لأمثالِها فَصلُ

مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية

بِعَزمةِ مأمورٍ مُطِيعٍ وآمِرٍ مُطـاعٍ فلا يُلفَى لحَزمِهِمُ مِثلُ(الـديوان، د.ت، 33- 39).

فتتجلى العلاقة الوثيقة بين الشـاعر والقبيلة ضـمن بنية كلية معتمدة ،إذ أصـبحت القبيلة محورًا تجذب الشـاعر نحوها، ويتناغم ذلك مع تطلعاته ورؤاه وقيمه التي يؤمن بها ويدعو إليها. لقد وجد في هذه القبيلة ولاسـيما في شـخصـيتي هرم والحارث، القيم الأخلاقية التي تتوافق مع أفكاره ومبادئه، كانت القيمتان البارزتان في القصـيدة هما الشـجاعة والكرم، وعلى الرغم من أنَّ تعبير الشـاعر عنهما لم يخرج عن المألوف، فإنَّ الأبيات تبرز أيضًا علو النسب والمكانة الرفيعة لهذه القبيلة.

تُبرز الأبيات من (تَربَّصْ فإنْ تُقْوِ المَرَوْراةُ مِنهُمُ ودارتُهـا لا تُقْوِ مِنهم إذًا نَخـلُ بِلادٌ بهـا نادمتُهُم وأَلِفتُهُم فإنْ تُقوِيا مِنهمُ فإنَّهُما بَسلُ) أهمية القبيلة ومواقع تواجدها، إذ قام الشـاعر بتحشـيد عدد من الأماكن مما يُعد سـمة بارزة في أسـلوبه. هذا التحشـيد يعكس رؤية الشـاعر للتغيير الذي يسـعى لتحقيقه، وهو تغيير يشمل القبيلة أو المجتمع في تلك المدة.

قد يبدو للوهلة الأولى أنَّ الممدوح وزهير يتناقضـــان في مواقفهما، فهل هما من دعاة الحرب أم السلام؟ وكيف يمكن أن يتوافق وصـف الحرب مع قيم زهير بصـفته شـاعرا يسـعى للسـلام؟ لكن عند التعمق في الأبيات، نجد أنّها لا تبرز فقط بشاعة الحرب وكراهيتها، بل تشير أيضًا إلى قوة الممدوح وشـجاعته وتأثيرهما في تعزيز السـلام، إنَّ التحول الذي يسـعى إليه الشـاعر يتطلب شـخصـية قوية، وبالتالي قبيلة محترمة ومهيبة في نظر القبائل الأخرى.

لذا في هذه اللوحة نجد صورتين للحرب: صورة قبيحة تعكس معاناة الناس (تهر الناس) و(أنيابها عصـــل)، إذ اراد الشـــاعر تذكير القوم بويلات الحرب وما تســـببت فيه من دمار وخراب للحرث والنسل، أمّا الصورة الأخرى فهي تبرز شجاعة القبيلة وقوتها ومدى خبرتها في الحروب، مما يعكس مكانتها وهيبتها. ومن ثم يدعو الشاعر إلى البحث عن السلام ويعبر عن رغبته القوية في التحول نحو مستقبل أفضل.

أمّا في اللوحة الآتية يقول :

متَى يَشتَجِرْ قَومٌ تَقُلْ سَرَواتُهم	هُمُ بَينَنا فَهُمُ رِضًا وهُمُ عَدْلُ
هُمُ جَدَّدُوا أحكامَ كلِّ مُضِلَّةٍ	منَ العُقمِ لا يُلفَى لأمثالِها فَصلُ
بِعَزمةِ مأمورٍ مُطِيعٍ وآمِرٍ	مُطاعٍ فلا يُلفَى لحَزمِهِمُ مِثلُ
ولَستُ بِلاقٍ بِالحجازِ مُجاوِرًا	ولا سَفَرًا إلاّ لهُ منهُمُ حَبلُ
بِلادٌ بها عَزُّوا مَعَدًّا وغَيرَها	مَشارِبُها عَذْبٌ وأَعلامُها ثَملُ

مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية

هُمُ خَيرُ حَيٍ من مَعَدٍّ عَلِمتُهُم لهُم نائلٌ في قَومِهِم ولُهم فَضلُ
فَرِحتُ بِما خُبِّرتُ عن سَيِّدَيكُمُ وكانا امرأَينِ كلُّ أَمرِهِما يَعلُو
رَأَى اللهُ بالإحسان ما فَعَلا بِكُم فأبلاهُما خَيرَ البَلاءِ الَّذي يَبلُو
تَدارَكتُما الأحلافَ قد ثُلَّ عرشُها وذُبيانَ قد زَلَّتْ بأقدامِها النَّعل
فأصبحتُما منها على خَيرِ مَوطنٍ سَــبيلُكُما فيهِ وإِنْ أَحزَنُوا سَــهلُ(الديوان، د.ت، 38- 41.(

بعد أن قدم الشــاعر صــورتين للحرب، إحداهما بشــعة غير مرغوبة والأخرى مرغوبة، تعكس الرغبة في ردّ العدوان وإبراز مكانة الممدوحين، انتقل لتسـليط الضــوء على دور هؤلاء الممدوحين في عملية التحول أو التغيير التي أحدثاها في المجتمع، فقد وجد فيهم الرضـــا والعدل، وهم القادرون على إنقاذ القبائل من هذه الحروب المدمرة، بعد أن فشـــلت جميع المحاولات الأخرى ومن ثم كانت عملية التحول تتطلب جهد القبيلة:

بعزمة مأمور مطيع وآمر مطاع فلا يلفى لحزمهم مثل

وتبرز بنية النص طبيعة العلاقة بين القائد وأفراد القبيلة، إذ تتجلى في الأدوار المتنوعة مثل (مطيع، مطاع، آمر، مأمور)، تُعد هذه العلاقة نوعًا من التواصـــل بين القبيلة والفرد، وقد تم التعبير عن هذا التواصل باستعمال ضمير المتكلم عندما قال (ولست:(

ولست بلاق بالحجاز مجاورًا ولا سفرا إلا له منهم حبل

إنَّ تسليط الضوء على شجاعة القبيلة وكرمها يعكس رغبة الشاعر في تأكيد ارتباطه بالقبيلة التي احتضـنته في صـغره ورعته في كبره. ولذلك جاءت الأبيات التي خصـصـها للممدوحين قليلة، إذ لم تتجاوز الأربعة أبيات:

فرحت بما خبرت عن سيدكم وكانا امرأين كل أمرهما يعلو
رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو
تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها وذبيان قد زلت بأقدامها النعل
فأصبحتما منها على خير موطن سبيلكما فيه وإن أحزنوا سهل

فقد ارتبطت صفة الشجاعة بالكرم، مما دفع الشاعر إلى مدح القوم بهذه الفضيلة السامية، فقد أصبح الحديث يدور حول القبيلة، مما يعكس رؤية الشاعر بأنَّ القبيلة تمثل محور التغيير. ولذلك يقول:

رأيتُ ذَوِي الحاجاتِ حَولَ بُيُوتِهِم قَطِينًا بها حتَّى إذا نَبَتَ البَقلُ
هُنالكَ إِنْ يُستخبَلُوا المالَ يُخبِلُوا وإِنْ يُسألُوا يُعطُوا وإِنْ يَيسِرُوا يُغلُوا

وفيهم مَقاماتٌ حِسانٌ وُجوهُهُم وأَندِيةٌ يَنتابُها القَولُ والفِعلُ
على مُكثِريهم رِزقُ مَن يَعتريهِمُ وعِند المُقِلّينَ السَّماحةُ والبَذلُ
وإنْ جِئتَهُم أَلفَيتَ حَولَ بُيُوتِهِمِ مَجالِسَ قد يُشفَى بأحلامِها الجَهلُ
وإنْ قامَ فيهم حاملٌ قالَ قاعدٌ رَشَدَتَ فلا غُرْمٌ عليكَ ولا خَذلُ
سَعَى بَعدَهُم قَومٌ لكي يُدْرِكوهُمُ فلم يَفعَلُوا ولم يُليمُوا ولم يألُوا
فما يَكُ مِن خَيرٍ أَتَوهُ فإنَّما تَوارَثَهُ آباءُ أبائِهِم قَبلُ
وهل يُنبِتُ الخَطِّيَّ إلاَّ وَشِيجُهُ وتُغرَسُ إلاّ في مَنابِتِها النَّخلُ(الديوان، د.ت، 41- 44.)

تعتمد بنية النص في هذه الأبيات على كرم القبيلة من ارتباط الأفراد بها، إذ يتجمع الناس حول بيوت القبيلة، كما يوضح الشاعر في قوله (رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم)، هذا الارتباط يتجلى من طريق استعمال ضمير المتكلم (رأيت)، مما يعكس انغماس الشاعر في تصوير كرم القوم، فالناس لا يأخذون حاجاتهم ويغادرون بل يبقون في أحضان القبيلة، مما يدل على وجود السلام والأمان في أرجائها.

كما أنَّ استعمال الفعل المضارع يعزز هذه الفكرة (يستخبلوا، يخبلوا، يسألوا، يعطوا، ييسروا، يغلوا)، إذ يوازن الشاعر بين الزمان والمكان لإبراز كرم القوم، فعبارة (هنالك) تشير إلى الأوقات التي يكثر فيها عطاؤهم، بينما تعكس (مقامات حسان) و(أندية ينتابها القول والفعل) أن القبيلة تتمتع بالحلم والعقل والاتزان، وهي صفات تتماشى مع أخلاق الشاعر وقيمه.

ويختتم الشاعر قصيدته كما هي عادته بحكمة تعكس شرف القوم وكرم أصلهم، إذ يشبههم بالشجرة الطيبة التي تنبت فروعًا طيبة، وهكذا القبيلة آباءً وأبناءً.

الخاتمة:

1ـــ ارتبطت البنية في قصائد زهير ذات الموضوعات المتعددة بالحالة النفسية التي رافقت زمن الإبداع، لذا نجد تعدد اللوحات مصاحبًا لتعدد النوازع والدوافع النفسية.

2ـــ لجأ الشاعر إلى الهروب مما هو سلبي ليلتحق بكل إيجابي، وقد ورد ذلك في العناصر التي ينبني عليها النصّ كالمطر.

3ـــ تضمنت الانتقالات بين بنيات اللوحات الشعرية صراعات مختلفة سببت معاناة الشاعر وعكست نظرته للحياة والواقع.

المصادر والمراجع:

- الجادر، محمود عبد الله، 1979م، شعر أوس بن حجر ورواته الجاهليين، دار الرسالة للطباعة، بغداد.
- الدينوري، ابن قتيبة، 2017م، الشعر والشعراء، ط1، تح: د. إيهاب عبد الفتاح أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- رومية، وهب، 1982م، الرحلة في القصيدة الجاهلية، ط3، مؤسسة الرسالة.
- سعيد، أدونيس علي أحمد، 1979م، مقدمة للشعر العربي، ط3، دار العودة_ بيروت.
- الشمنتري، يوسف بن سلمان بن عيسى الأعلم، د.ت، شعر زهير بن أبي سلمى، تح: فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، بيروت_ لبنان.
- الصائغ، عبد الإله، 1982م، الزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام، عبدالاله الصائغ، دار الرشيد للنشر.
- عبد الرحمن، نصرت، 1976م، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، مكتبة الأقصى_عمان.
- عبد العزيز، عمر، 2009م، بنية الرحلة في القصـيدة الجاهلية الأسـطورة والرمز، ط1، الانتشـار العربي، بيروت_ لبنان.

البحوث:

- بنية الخطاب الشعري في معلقة لبيد بن ربيعة العامري. (2025). لارك, 17(1 (.15-1 ,(Pt1/ https://doi.org/10.31185/lark.3933.
- الطعان، صـبحي، 1994م، بنية النصّ الكبرى، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مجلد: 23، عدد: 1.

مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية

Sources and References:

- Al-Jader, Mahmoud Abdullah, 1979, Poetry of Aws bin Hajar and its Pre-Islamic Narrators, Dar Al-Risala for Printing, Baghdad.
- Al-Dinuri, Ibn Qutaybah, 2017, Poetry and Poets, 1st ed., trans. Dr. Ihab Abdel Fattah Ahmed, Egyptian General Book Authority.
- Roumieh, Wahb, 1982, Journey in the Pre-Islamic Poem, 3rd ed., Al-Risala Foundation.
- Saeed, Adonis Ali Ahmed, 1979, Introduction to Arabic Poetry, 3rd ed., Dar Al-Awda_ Beirut.
- Al-Shamantri, Youssef bin Salman bin Issa Al-A'lam, n.d., Poetry of Zuhair bin Abi Salma, trans. Fakhr Al-Din Qabawa, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut_ Lebanon.
- Al-Sayegh, Abdul-Ilah, 1982, Time in the Arab Poets before Islam, Abdul-Ilah Al-Sayegh, Dar Al-Rasheed for Publishing.

• Abdul Rahman, Nasrat, 1976, The Artistic Image in Pre-Islamic Poetry, Al-Aqsa Library, Amman.

• Abdul Aziz, Omar, 2009, The Structure of the Journey in Pre-Islamic Poems: Myth and Symbol, 1st ed., Arab Influence, Beirut, Lebanon.

Research:

• The structure of poetic discourse in the Mu'allaqat of Labid bin Rabi'ah Al-Amiri. (2025). Lark, 17(1/Pt1), 1-15.) https://doi.org/10.31185/lark.3933 .

Al-Ta'an, Subhi, 1994, The structure of the major text, Alam Al-Fikr Magazine, National Council for Culture, Arts and Letters, Kuwait, Volume: 23, Issue: 1.

مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية